الوهم في الروايات التاريخية

أ.د.يحيى محمد علي

جامعة بغداد /كلية التربية ابن رشد

الوهم في الروايات التاريخية

أ.د.يحيى محمد علي

المقدمة

يعد الوهم في الروايات التاريخية من العوامل الذي ساهم في تشكيل العديد من الحوادث التاريخية التي شابها التشويه والخلط وعدم الدقة ، وإنَّه الذي لا يقبل أبدًا المعقولية ولا يقبل الحقيقة ، إنَّه الموازي تمامًا لهما ، وإنَّه الضِّدُّ والنَّقيض لهما ، ولا يُمكن رؤية حقيقته إلاَّ من خارجه سواء أكان خارجه المزامن له أم خارجه الذي مضى عليه الزَّمن وبانت حقيقته ، وأنَّ كلَّ شيءٍ فيه مباح ومتاح ، وأنَّه بعيد عن حدود الحقيقة التي تلزمها طبيعة الحياة الإنسانية .

ترجع اهمية هذا البحث إلى كون الوهم في الروايات التاريخية له طبيعته وخاصيته وأثاره الكبيره على تغيير الحقائق التاريخية التي إن ترسخت فإنها ستكون سببا في صراعات الشعوب ، وفقرها ، وتخلفها ، وتراجعها ، وهي محاولة ضرورية لبيان حقيقته وكيف يمكن مجابهته وازالته عن التاريخ . من أجل محاولة تجنبه وتمييز رواياته عن ما سواه .

أما الأسباب التي كانت الدّافع للكتابة في هذا الموضوع هي بيان طبيعة الوهم في الروايات التاريخية الذي وقع فيه كثيرٌ من النَّاس على مدار التّاريخ ، وكان السَّبب المباشر في خسارتهم لحياتهم سواء أكان بالتّضحية بها من آجل الوهم أم خسارة حياتهم ؛ بأنَّهم عاشوا في الوهم وهم له جاهلون، ويظنون أنَّهم في عالم الحقيقة ، وكذلك بيان واقع الوهم الذي دخل فيه كثير من النَّاس بحكم التّاريخ ، وقد يكون الوهم أقوى من الحقيقة ؛ لأنَّ المتوهم لا يدري أنَّه في الوهم ومغيب فيه ، ولا يرى ما في خارجه ، وأنَّ الخروج منه يحتاج إلى جهد فكري ذاتي لكي يعرف عالم الحقيقة.

أقتضى هذا البحث الموسوم (الوهم في الروايات التاريخية) أن نتبع المنهج الوصفي التحليلي للوصول الى المبتغي وبالاعتماد على العديد من المصادر والمراجع عديدة من أجل

الوصول غلى المبتغى والمطلوب من النتائج ، وتتطلب ان نقسمه اللى ثلاثة مباحث تسبقهما المقدمة ويأتي بعدها الخاتمة التي تضمنت أهم النتائج التي توصلنا إليها .

المبحث الاول : تعريف الوهم ومفهومه

أولا : تعريف الوهم لغة

الوَهْمُ: هو من خَطَراتِ القلب، والجمع أَوْهامٌ، وللقلب وَهْمٌ ، وتَوَهَّمَ الشيءَ تخيَّله وتمثَّله كان في الوجود أَو لم يكن ، ويقال أَوْهَمْت الشيء إذا أَغفَلْته وَهِمْتُ في كذا وكذا أي غلِطْتُ ، وأَوْهَمْتُ الشيءَ تركتُه كلَّه ، وأَوْهَمَ إذا أَسقَط ، وَوَهِمَ إذا غَلِط ، ووَهَمَ إليه يَهِمُ وَهْماً ذَهب وهْمُه إليه ، فإذا ذهب وَهْمُك إلى الشيء قلت وَهَمْت إلى كذا وكذا أَهِمُ وَهْماً ، ووَهَمْت إلى الشيءِ إذا ذهب قلبُك إليه وأَنت تريد غيرَهُ ، أَهِمُ وَهْماً وَهَمْتُ في الشيء بالفتح ، أَهِمُ وَهْماً إذا ذهَبَ وَهْمُك إليه وأَنت تريد غيره ، وتوَهَّمْتُ أي ظننت ، والتّوْهِيمُ مثلُه ؛ وَوَهِمَ، بكسر الهاء غَلِط وسَها وأَوْهَم من الحساب أَوْهَمْتُ أَسقطتُ من الحساب شيئاً، وأَوْهَم الرّجلُ في كتابه وكلامه إذا أَسقَط ، ووَهِمْتُ في الحساب وغيره أَوْهَم وَهَماً إذا غَلِطت فيه وسَهَوْت ويقال أَوْهَم ووَهِمَ ووَهَمَ سواء [١]،

ثانيا : تعريف الوهم اصطلاحا

هو : أخبار بعيدة عن الصّحة عريقة في الغلط وأشبه بأحاديث القصاص الموضوعة [٢]، وكذلك عُرف بأنه " نسيب للأخبار وخليل "[٣]

ومن الممكن توصيف الوهم في الروايات التاريخية بالقول : " وهو وليد الخيال والمصالح والرغبات والغايات والمقاصد الخاصة ، وهو وليد قصور الفهم والتصور وقصور توافر الحد الادني للحقيقة ، وقصور الحكمة والعلم والمعرفة بإصول علم التاريخ وضوابطه وقواعده ، وهو على وفق المقتضى الذي يبتغيه المتخيل والمبتدع لهذا التاريخ ، وهو بعيد عن الدخول الى حيز التصديق مهما حاول مبتدعيه أو متخيليه الوصول به الى هذا الحيز "[٤]

ثالثا : مفهوم الوهم في التاريخ

الوهم هو التّصور الذي يُبنى على ما لا حقيقة له ، وهو بيداء جرداء ليس لها معالم أو دلائل تُفضي إلى نهايات لها غاية معلومة ومقصودة ، والسّير في الوهم يكون مآله إلى مكان غير معلوم أو غير مرغوب به ، أو إلى ما لا نهاية له وليس له مكسب سوى إنتظار

ما لا يمكن الاستحصال عليه ، وأنَّه الدّوامة التي تنتهي إلى حيث ما لا يرغبه أو يتمناه الذي دخل إليه ، وهو العامل الذي يدفع كثيراً من النَّاس إلى العيش في ما لا يرغبون ؛ لأنَّه يُمنيهم بأنَّهم سيحصلون على ما يريدون، أو يُقنعهم بأنَّ الذي هم فيه هو أفضل لهم ، أي إنَّه يُمني من فيه الوصول إلى حيث النهاية، وإذا به ينتهي قبل بلوغ اللانهاية ، وأنَّه العالم الذي يستغله المنتفعون منه لتحقيق ما يحقق مصالهم على المستوى الاجتماعي أو الفردي ، وهو العالم الذي عاش فيه ملايين من النَّاس ثم غادروا حياتهم من دون معرفتهم به ، وأنَّه العالم الذي يعتقد من فيه ، أنَّ جزءَ ما فيه هو كل ما فيه ، مثل الولهان الذي يعتقد أنَّ ولهه هو كل حياته، فيُركب ويبني كل شيء عليه ، وعند إفاقته من وهمه سيرى عظيم خطأه ، وأنَّ ولهه هو الجزء اليسير من حياته ، وليس كل حياته ، وكذا الحال على كل مولع ، وكل معتاد ، وكل متأثر ، وكل معتقد بما لا يُستحق الاعتقاد به ، وكل من دخل الوهم وظنَّ أنَّ ذلك حقيقة العالم أجمع[٥] .

المبحث الثاني : أسباب الوهم في الروايات التاريخية

توجد العديد من الأسباب التي تؤدي إلى الوهم في الروايات التاريخية منها أسباب شخصية ومصلحية وعلمية ونفسية وهي :

ـ عدم تفعيل قانون السببية الذي به يمكن تجنب قبول الاخبار التاريخية الوهمية وفي هذا الشأن قال ابن خلدون: " ولم يلاحظوا أسباب الوقائع والاحوال ولم يراعوها"[٦].

ـ عدم تفعيل الرفض لكل ما لا يمكن قبوله فقال ابن خلدون : " ولا رفضوا ترهات الاحاديث ولا دفعوها " [٧] . وقد نبه الطبري على عدم قبول كل ما ورد في كتابه لان فيه بعض الروايات الوهمية بقوله " " فما يكن في كتابي هذا من خبر ذكرناه عن بعض الماضين مما يستنكره قارئه، أو يستشنعه سامعه، من أجل أنه لم يعرف له وجها في الصحة، ولا معنى في الحقيقة، فليعلم انه لم يؤت في ذلك من قبلنا، وإنما أتى من قبل بعض ناقليه إلينا، وإنا إنما أدينا ذلك على نحو ما أدي إلينا" [٨] ، كذلك ذكر ياقوت أنه وجد الكثير من الأخبار التي تأبى العقول تصديقها فقال : " حتى لقد ذَكرتُ أَشياء كثيرة تأْباها العقول، وتَنفِر عنها طباع من له محصول، لبُعدها عن العادات المأْلوفة، وتنافُرها عن المشاهدات المعروفة، وإِن كان لا يُستعظَم شيءٌ مع قُدرة الخالق وحِيَلِ المخلوق، وأَنا مُرتاب بها نافرٌ عنها مُتَبَرِّىءٌ إِلى

قارئها من صِحَّتها، لأَنني كتبتها حِرصاً على إحراز الفوائد، وطلباً لتحصيل القلائد منها والفرائد، فإن كانت حقا فقد أَخذنا منها بنصيب المصيب، وإن كانت باطلًا فلها في الحق شِرك ونصيب، لأَنني نَقَلتُها كما وجدتُها، فأَنا صادق في إيرادها كما أَوردتُها، لتعرف ما قيل في ذلك حقاً كان أَو باطلًا، فإنّ قائلًا لو قال :سمعتُ زيداً يكذب، لأَحْبَبْت أَن تعرف كيفية كذبه" [٩]

ـ ضعف قابلية التمحيص والتحقيق والتدقيق : " فالتحقيق قليل وطرف التنقيح في الغالب كليل "[١٠].

ـ عدم معرفة طبيعة الاخبار التي تتحمل وجود الخطأ والوهم : " والغلط والوهم نسيب للاخبار وخليل " [١١] .

ـ بسبب التقليد لما قيل ممن سبق : " والتقليد عريق في الادميين وسليل "[١٢] .

ـ دخول غير المؤهلين لهذا العلم أو غير المختصين به : " والتطفل على الفنون عريض طويل "[١٣] . وقد أكد ابن حزم ذلك بقوله " لا آفة على العلوم وأهلها أضر من الدخلاء فيها وهم من غير أهلها فإنهم يجهلون ويظنون أنهم يعلمون وبفسدون ويقدرون أنهم يصلحون"[١٤]

ـ بسبب وجود الجهل بين العديد من الناس مما يسهل قبولهم لما يسمعون : " مرعى الجهل بين الأنام وخيم وبيل " [١٥] . وقد عاب الكثير من العلماء جهل مجتمعهم مثلا المسعودي وصف ما رأه من ابناء مجتمعه بقوله : " على أن العلم قد بادت آثاره ، وطمس مناره وكثر فيه الاغبياء وقل الفهماء ، ولا تعاين إلا مموها جاهلا ومتعاطيا ناقصا ، قد قنع بالظنون وعمي عن اليقين "[١٦] ، والجهل بواسطته تكون الاخبار مقبولة أيا كانت وقد وصف ابن خلدون ذلك بقوله : " فضلوا عن الحق وتاهوا في بيداء الوهم والغلط "[١٧] ، ووصف هذه الاخبار بقوله : " وهذه الاخبار كلها بعيدة عن الصحة ، عريقة في الوهم والغلط وأشبه بأحاديث القصاص الموضوعة "[١٨] .

ـ الميل أو التعصب لجهة معينة قال أحد الباحثين : " نقص التاريخ قد يكون بسبب العاطفة الذاتية إزاء من يؤرخ لهم من الشخصيات ، أو المطالب والقضايا ، وأحيانا بسبب إنتماء المؤرخ إلى حزب معين ، أو طبقة معينة ، أو إتجاه خاص ... وإنتماؤه إلى طبقة معينة ، فذلك يعني أن هناك خلفية تشكل الطبقة التاريخية لذهن المؤرخ وعقله ، ومن الطبيعي حينئذ

أن يتميز ، ويتخير الوقائع والافراد التي تؤيد وجهة نظره ، ويتجاهل أو على الاقل يبخس من قيمة الوقائع والاشخاص الذين لا يؤيدون وجهة نظره "[١٩] . وبذلك فإن ناقل الخبر التاريخي أو كاتبه إذا تغاضى عن بعض شخوص أو أحداث الحادثة التاريخية ، فإنه بذلك نقل رواية التاريخية وهمية بعيدة عن الرواية الحقيقية الاصلية .

ـ الجهل بمقصد الافعال والاعمال : فكثير من الاعمال والافعال ظاهرها مخالف لمقصدها ، فالذي يقتصر نظره على ظاهر الرواية التاريخية من غير معرفة مقصدها فإنه حتما يقع في الوهم لأن مقصد الحادثة هو المعول عليه في إصدار الحكم على الرواية التاريخية فنقل الرواية من غير مقصدها وغايتها يكون النقل مظنه الوهم والخيال والبعد عن الحقيقة وفي هذا قال ابن خلدون : " ومنها الذهول عن المقاصد ، فكثير من الناقلين لا يعرف القصد بما عاين أو سمع ويتقل الخبر على ما ظنه وتخمينه فيقع في الكذب "[٢٠] ، وأيضا أضاف : " ومنها الجهل بتطبيق الاحوال على الوقائع لأجل ما يداخلها من التلبيس والتصنع فينقلها المخبر كما رآها وهي بالتصنع على غير الحق في نفسه "[٢١] ، وكذلك أدلى السيوطي بدلوه في هذا الشأن فقال : " الجاهل بعلم التاريخ راكب عمياء ، خابط خبط عشواء ينسب إلى من تقدم أخبار من تأخر ، وبعكس ذلك ولا يتدبر ، وإن رد عليه وهمه لا يتأثر " [٢٢] ، لذلك كل رواية تاريخية لا بد من تفعيل التحقيق والدقيق فيها ، ومن ثم محاولة الوصول الى مقصدها وغايتها.

ـ عدم المعرفة الكاملة بناقل الخبر : من المعلوم أن وصول الخبر التاريخي يتطلب ناقل الذي لا بد من المعرفة الكاملة به من حيث صدقه أو عدمه ، ولا ينبغي أخذ الخبر على عواهنه من أيا كان من غير الوصول الى مرحلة الثقة بالناقل لان عدم الوصول الى هذه المرحلة تعني الوقوع بالكذب وقال ابن خلدون في هذا : " ومنها توهم الصدق وهو كثير وإنما يجيء في الأكثر من جهة الثقة بالناقلين "[٢٣]، لذلك مرحلة التأكد من ناقل الخبر من المراحل المهمة في النقد التاريخي .

ـ الجهل بطبيعة الحوادث التاريخية : من المعروف أن الحوادث التاريخية لها طبيعة خاصة ومنها المقدمات والاسباب والكيفية والغاية والنتائج ، ولا بد أن تكون المقدمات والاسباب متطابقة مع الكيفية والنتائج ، فمن جهل هذه الحقيقة لا بد أن يصيبه الخطأ والوهم ولا

يتمكن من التفريق ما بين الواقع وغيره ، ولا يتمكن من التفريق بين الغث والسمين ، وقد أشار الى ذلك ابن خلدون إذ قال : " الجهل بطبائع الاحوال في العمران فإن كل حادثة من الحوادث ذاتا كان أو فعلا لا بد له من طبيعة تخصه في ذاته وفيما يعرض له من أحواله ، فإذا كان السامع عارفا بطبائع الحوادث والاحوال في الوجود ومقتضياتها ، أعانه ذلك في تمحيص الخبر على تمييز الصدق من الكذب "[٢٤] . لذلك يمكن القول أن الجهل بعلم التاريخ ومضمونه وأصوله وقواعده ، أدى بالكثير من الناس لأن يعدونه عبارة عن قصص وحكايات مشوقة ، لذلك غدا ميدانا لبعض الطارئين الذين خلطوا الحق بالباطل وحشروا بكتب التاريخ ما ليس بتاريخ وغدت من المسلمات والثوابت لأصدار الاحكام ، وأصبحت مسار يسار عليها ومنهج حياة وهي في حقيقتها وهم وما بني على وهم وخطأ فهو وهم وخطأ وكان الوصف الدقيق لهذه الحاله هو : " وأستخف العوام ومن لا رسوخ له في المعارف مطالعته وحمله والخوض فيه والتطفل عليه ، فأختلط المرعى بالهمل[٢٥] ، واللباب بالقشرة ، والصادق بالكاذب "[٢٦] .

ـ عدم القدرة على ضبط التصور والخيال على قاعدة الواقع : أي أن التصور المبني على مضمون الرواية من غير إعتبار للواقع الزماني والمكاني والحالي للحادثة فإنه يأتي بتاريخ وهمي يُقدم على أنه حقائق تاريخية وواقعية معتمده ، وعلى أساسها تصدر الاحكام على المراحل التاريخية والشخوص التي نُسب لها هذا التاريخ ، وكذلك التصور المنضبط يجب أن يكون على وفق الواقع الذي من الممكن أن يحدث فيه مضمون الرواية ، بمعنى أن مضمون الرواية إذا تضمنت أحداثا خارج قدرة الانسان وإمكانياته الزمانية والمكانية والحالية ، فالتصور حينئذ يكون أساسه بعيدا عن الواقع والنتيجه الحتمية ستكون غير واقعية ، وكذلك يجب إبعاد قياس بيئة الناقل أو المؤرخ ومجتمعه ومحيطه وحالته النفسية وزمانه ومكانه عن شخوص التاريخ وزمانها ومكانها وحالها ، فلكل زمان ومكان وحال وشخوص خواص لا تتعدى أبدا الى غيرها ، فالقياس التاريخي له حدوده ومعاييره الخاصة وليس مجمل القياس أي لا يمكن قياس حال إنسان العصور القديمة بإنسان الوقت القريب أو الحديث ، فالفكر يختلف وكذلك المفاهيم والبيئة والحال تختلف فيؤدي إلى الاختلاف بينهما.

ـ عدم تطبيق قواعد قبول الرواية التاريخية التي ذكرها ابن خلدون بقوله : " لان الأخبار إذا اعتمد فيها على مجرد النقل، ولم تحكم أصول العادة، وقواعد السياسة وطبيعة العمران والاحوال في الاجتماع الإنساني ، ولا قيس فيها الغائب منها بالشاهد ، والحاضر بالذاهب ، فربما لم يؤمن فيها من العثور ، ومزلة القدم والحيد عن جادة الصدق ، وكثيرا ما وقع للمؤرخين والمفسرين وائمة النقل المغالط في الحكايات والوقائع ، لاعتمادهم فيها على مجرد النقل غثا أو سمينا ، ولم يعرضوها على أصولها ، ولا قاسوها بأشباهها ولا سبروها بمعيار الحكمة ، والوقوف على طبائع الكائنات وتحكيم النظر والبصيرة في الاخبار فضلوا عن الحق وتاهو في بيداء الوهم والغلط "[٢٧] ، " وأكثر ما يقع في هذا الغلط ضعفاء البصائر " [٢٨] ، وأشار المسعودي إلى هذا النوع من الاخبار بقوله : " إن هذه الاخبار موضوعة مزخرفة مصنوعة نظمها من تقرب إلى الملوك بروايتها وصال على اهل عصره بحفظها والمذاكرة بها وان سبيلها سبيل الكتب المنقولة إلينا والمترجمة لنا من الفارسية والهندية والرومية ... مثل كتاب هزار افسانه ، .. ألف خرافة وخرافة بالفارسية ... والناس يسمونه ألف ليلة وليلة ... ومثل كتاب السندباد وغيرها من الكتب في هذا المعنى "[٢٩]

المبحث الثالث : أنواع الوهم في الروايات التاريخية

أولا ـ الخرافات

الخرافة لغة هي فساد العقل من الكبر ، وقد خرف الرجل بالكسر يخرف خرفا فهو خرف، والانثى خرفة ، وأخرفه الهرم ، وسمي الخريف لأنه تخرف فيه الثمار أي تجتني[٣٠] ، أما تعريف الخرافة أصطلاحا فهي : عقيدة أو نسق من العقائد القائمة على أساس صلة خيالية بين الاحداث وغير قابلة للتبرير على أساس عقلي[٣١] ، أو هي من عالم الخيال والوهم الذي لا عقل يقبلها ولا واقع ملموس لها .

ولأنها من عالم الخيال والوهم فقد صدرت دعوه الى ضرورة تنقية التاريخ منها ومن الذين دعو إلى ذلك كولنجررد عن طريق أليات معينة فقال : " يستند إلى النقد والتحليل للروايات والاخبار التاريخية من أجل تنقيتها من الخرافات والاساطير والمبالغات"[٣٢] ، ومن مضامين الخرافات التاريخية أنها تتضمن أحداث ليس لها أصل وهي من متبنيات الوهم والخيال ، وتتضمن إفتعال أفعال ليس لها فاعل ، وتقويل أقوال ليس لها قائل ، وتحقيق إنجازات ليس

لها واقع ، وإيجاد أشخاص وجماعات من عالم الخيال ونسج لهم الاعمال البطولية البعيدة عن الامكانيات والقدرات البشرية .

وممن صرح عن الخرافات وبين مضمونها مسكويه الذي قال : " فللفرس خُرافات وتزعم أن الشياطين كانت مسخرة لكيفابوس وقوم يزعمون أن سليمان بن داود عليهما السلام أمرهم بذلك ... في خرافات كثيرة ظاهرة الاحالة ، من الصعود الى السماء ، وبناء مدينة كنكرز بأسوار ذهب وفضة وحديد ونحاس ، أنها بين السماء والارض ، واشباه ذلك مما لا فائدة من ذكره " [٣٣] ، أي أن مسكويه حدد الخرافات بأنها من عالم الوهم والخيال ثم ذكر عدد من الامثلة وأوضح أن لا مقاصد فيها ، وفي موضع آخر أورد مسكويه عدد من القصص عن الاسكندر وحيله في المعركة التي يسبق كل واحدة منها بكلمة يُحكى ثم أعقب ذلك بقوله: " وفي الرواية الصحيحة ..."[٣٤].

ولعل أبرز الأسباب لترويج الخرافات هي العجز عن معرفة سبب علمي مقنع لحدوث الاحداث الحياتية المختلفة ، لذلك يتجهون الى تفسير ذلك بناءا على الغيب أو الخيال ، كما فعل العرب في العصر الذي سبق الاسلام ، إذ كانوا عاجزين عن تفسير أسباب المرض تفسيرا علميا لذا فسروا ذلك تفسيرا غير علمي ولا عقلي وهو أن ذلك يعود لغضب الالهة على الناس وإلى أرواح شريرة تصيب الجسم فكانوا يستطبون بالسحر والتعاويذ[٣٥] ، وهذا الاعتقاد تُبنى عليه الكثير من القصص الوهمية لأثبات هذا المعتقد ، وكانوا يفتقرون الى إستقراء منهجي ومضمون علمي يصل الى إستخلاص النتائج وربط بعضها ببعض في نسق من النظام العلمي[٣٦] .

كذلك تأتي الخرافات بأستحداث أحداث خيالية ليس لها واقع لترغيب الناس لسماعها والانجذاب نحوها وقد ذكر ابن النديم قول محمد بن إسحاق : " كانت الاسمار والخرافات مرغوبا فيها مشتهاة في أيام خلفاء يني العباس ، وسيما في أيام المقتدر فصنف الوراقون ، وكذبوا فكان ممن يفتعل ذلك رجل يعرف بإبن دلان وأسمه أحمد بن محمد بن دلان ، وآخر يُعرف بابن العطار وجماعة ، وقد ذكرنا فيما تقدم من كان يعمل الخرافات والاسمار على السنة الحيوان وغيره ، وهم سهل بن هارون وعلي بن داود والعتابي وأحمد بن أبي طاهر " [٣٧]، فهذا ينص يوضح صناع الخرافات والغرض من وجودها .

وقد أنتقد مسكوية الذين ينقلون الاخبار من دون تدقيق ولا تمحيص ومنها الخرافات التي لا فائدة منها ترجى فقال : " ووجدت هذا النمط من الاخبار مغمورا بالاخبار التي تجري مجرى الاسمار والخرافات التي لا فائدة فيها غير إستجلاب النوم بها ، والاستمتاع بأنس المُستطرب منها حتى ضاع بينها ، وتبدد في أثنائها ، فبطل الانتفاع به ، ولم يتصل لسامعه وقارئه إتصالا يربط بعضه بعضا ، بل تُنسى النكة منها قبل أن تجيء أختها وتتفلت من الذهن قبل أن تُفندها نظيرتها ويشتغل الفكر بسياقة خبرها دون تحصيل فائدتها " [٣٨] ، ولعل هذا النص هو للاجابة على السؤال لماذا يستمع الناس الى القصص التي مضمونها الخرافة وعدم الصدق ، لأن الناس قد يستمتعون عند السماع إليها ، وبها يستجلب النوم ، ولعل هذه إحدى وسائل الهروب من الواقع الذي فيه مصاعب الحياة الاقتصادية والاجتماعية والسياسية أو الهروب من الحقائق الحياتية ، لذلك يمكن القول أن البيئة التي تُساعد على إنتشار مثل هذه الخرافات هي البيئة التي فيها العوز المادي ووجود الفوارق الطبقية الكبيرة .

كذلك هذا النص يوضح المنهج العلمي الذي إتبعه مسكويه بمنع أي تسلل إلى كتابه تجارب الامم ما ليس بتاريخ وقد وصف روزنتال ذلك قائلا : " يُمثل مستوى عاليا في الكتابة التاريخية على طريقة الحوليات فهو قلما يهتم بالأمور التافهة ، بل يُدرك كل ما له قيمة تاريخية ويعرض الاحداث الهامة بشكل معقول التماسك "[٣٩] .

أوضح غوستاف لوبون الكيفية التي تتسرب الخرافات أو الأساطير إلى الناس المتوهمة ، فالحدث الأكثر بساطة يتحول إلى حدث آخر مشوه ومبالغ فيه بما يناسب التوهيم المراد تحقيقه عن طريق الصور المشكلة في ذهن السامع تثير بواسطتها سلسلة من الصور الآخرى بدون أي علاقة منطقية والسامع غير مدرك لذلك ؛ لأنه يخلط بين المبالغة التي تلحق بالحدث وبين الحدث نفسه ، وبما أنه غير قادر على التمييز بين الذاتي والموضوعي ، فإنه يجعل الصورة المتكونة في خياله بمنزلة الحقيقة الراسخة التي ينبغي الإنصياع لها من دون تفكير ، ومن المعروف إن الكثير من المجتمعات قد رسخت لديها هذه الأساطير والخرافات وأصبحت ثقافة للمجتمع ولها مؤلفات خاصة بها وقد أورد النديم الكثير من هذه المؤلفات[٤٠] .

ومن الخرافات الدينية التي كانت منتشرة في بلاد العرب في العصر الجاهلي:

ـ الفيتشية : وهي القوة المؤثرة الخفية والغالب أنها تقديس أو عبادة الاشياء المادية الجامدة التي لا حياة فيها كالاحجار والاشجار ، وهي أشياء حسية يظن الذي يعتقد بها أنها تفيد حياته اليومية ففيها قوة سحرية غير منظورة هي الروح فالروح هي المعبود لا الحجر أو الشجر الذي هو منزله الذي تحل فيه[٤١] .

ـ الطوطمية : وهي من الطوطم كائن كانت تحترمه بعض القبائل الموغلة في البدائية ، ويظن أفرادها بوجود صلة نسب بينه وبينهم ويسمونه طوطمهم ، وربما يكون الطوطم حيوانا أو نباتا فإن كان حيوانا لا يُقدم معتقدوه على قتله ، وإذا كان نباتا لا يتجرأون على قطعه وأعتقد بعضهم أن الطوطم يحمي أهله عند حدوث خطر ، فكانوا يحملونه معهم في المعارك ولهم طقوس دينية خاصة لهذا الطوطم[٤٢] .

ـ الارواحية : إنها الاعتقاد بوجود أرواح تؤثر في الطبيعة ولعالم الارواح أثر كبير في عقائد الجاهليين[٤٣] .

ـ الغول والسعلاة : وهي أشهر قصص العصر الجاهلي إختلقها الخيال بفعل الحياة البدائية والنتقل في الفيافي وأضفوا عليها خصائص حسية ، فالغول عندهم من الممكن أن يتحول في أي صورة شاءت وتتمثل في صور مختلفة ، وأكثر هذه القصص منسوبة إلى الشاعر تأبط شرا ، وإلى عبيد بن أيوب الذي كان يُخبر في شعره أنه يرافق الغول والسعلاة ويبايت الذئاب والافاعي ، ويؤاكل الظباء والوحش وفي ظنهم أن السعلاة تظهر للناس في النهار ، ويتراءى لهم الغول في الليل[٤٤] .

ويبدو أن هذه الخرافات ليس لها عصر محدد وتنتهي بنهاية العصر ، وإنما تستمر بإستمرار عواملها التي هي الجهل والعوز والفقر المادي ، لذلك يمكن القول أن العامل المشترك بين المجتمعات التي تنتشر بها الخرافات هي فقدان أدوات التفكير العلمي والعقلي للظواهر العامة سواء الطبيعية أو الاجتماعية ، وكلما زاد الجهل كلما زاد تقبل ألاوهام والخيال .

وقد أورد ابن النديم عشرات عنواين الكتاب التي تحمل في مضمونها الخيال والخرافة ، وأحد العناوين التي أوردها في كتابه الفهرست كعنوان لمجموعة من الكتب فقال عنها : الفن

الاول في أخبار المسامرين والمخرفين ، وأسماء الكتب المصنفة في الاسمار والخرافات ثم أورد ابن النديم قول ابن إسحاق الذي نصه : " أول من صنف الخرافات ، وجعل لها كتبا وأودعها الخزائن ، وجعل بعض ذلك على ألسنة الحيوان ، الفرس الأول . ثم اغرق في ذلك ملوك الاشغائية ، وهم الطبقة الثالثة من ملوك الفرس . ثم زاد ذلك وإتسع في أيام ملوك الساسانية ، ونقلته العرب إلى اللغة العربية ، وتناوله الفصحاء والبلغاء ، فهذبوه ونمقوه وصنفوا في معناه ما يشبهه . فأول كتاب عمل في هذا المعنى ، كتاب هزار افسان ، ومعناه الف خرافة ، وكان السبب في ذلك أن ملكا من ملوكهم كان اذا تزوج امرأة وبات معها ليلة ، قتلها من الغد ، فتزوج بجارية من أولاد الملوك ممن لها عقل ودراية ، يقال لها شهرازاد ، فلما حصلت معه ابتدأت تخرفه ، وتصل الحديث عند إنقضاء الليل بما يحمل الملك على إستبقائها ومسئلتها في الليلة الثانية عن تمام الحديث الى أن أتى عليها الف ليلة ... والصحيح إن شاء الله إن أول من سمر بالليل الاسكندر ، وكان له قوم يضحكونه ويخرفونه" [٤٥] .

ثم أورد ابن النديم قول ابن إسحاق الذي بين أن أول من ألف في الخرافات ما نصه : " إبتدأ أبو عبدالله محمد بن عبدوس الجهشياري صاحب كتاب الوزراء ، بتأليف كتاب اختار فيه الف سمر من أسمار العرب والعجم والروم وغيرهم ، كل جزء قائم بذاته لا يعلق بغيره ، وأحضر المسامرين ، فأخذ عنهم أحسن ما يعرفون ويحسنون واختار من الكتب المصنفة في الاسمار والخرافات ما حلا بنفسه ... "[٤٦] ، ثم أورد ابن النديم أسماء كتب الهند في الخرافات والاسمار والاحاديث ومنها كتاب كليلة ودمنة ، ثم أورد أسماء كتب الروم في الاسمار والتواريخ والخرافات وأمثالهم ومنها كتاب تاريخ الروم ، كتاب سمسة ودمن على مثال كتاب كليلة ودمنة وغيرها ، ثم أورد أسماء الكتب في الحيل والطلسمات التي تتضمن ما ينسب الى اصحاب الحيل والطلسمات[٤٧] .

ثانيا ـ القصص الخيالية :

أصل كلمة القصة هي من الفعل قص ، وتعني قص أثره يقصه قصا وقصصا تتبعه ، فالقص تتبع الاثر شيئا بعد شيء ، وقص عليه الخبر قصا وقصصا أعلمه به ، وآخبره ،

وقيل القاص يقص القصص لأتباعه خبرا بعد خبر ، والقصص بكسر القاف جمع القصة والقصص بالفتح الاخبار المتتبعة[٤٨] .

أما تعريف القصص أصطلاحا : عرض لفكرة مرت بخاطر الكاتب أو تسجيل لصورة تأثرت بها مخيلته ، أو بسط لعاطفة في صورة فأراد أن يعبر عنها بالكلام ليصل بها إلى الاذهان محاولا أن يكون آثرها في نفوسهم مثل أثرها في نفسه[٤٩] .

وعُرف عن العرب قبل الاسلام شغفهم بالقصص وساعدهم على ذلك أوقات فراغهم الطويلة فكانوا حينما يرخي الليل سدوله يجتمعون للسمر وما أن يبدأ القاص كلامه حتى يصغي الجميع أسماعهم إليه من شيوخ وشباب ونساء وأطفال وكانوا يتابعونه بشوق ولهفة ، وكان هولاء القصاص يستمدون قصصهم من الاساطير والخرافات التاريخية المأثورة عن العرب أو عمن جاورهم [٥٠] .

والواقع أن القصاص أضفوا على قصصهم جانب من خيالهم ومهارتهم وأسلوبهم في السرد القصصي فأستمالوا السامعين لهم ، وكانوا يستمدون مادتها من الاساطير والخرافات السائدة والمتنقلة بين المجتمعات ، ومن الاخبار والاحاديث الخيالية والتاريخية المأثورة عن العرب وعمن جاورهم عن ملوك الامم وما يماثل ذلك في بعض القصص الخيالية عن الحيوانات مثل خرافة الحية والفأس ، ومنها عن الجن والعفاريت والشياطين وزعموا أنها تتحول في أي صورة شاءت ، وعلى الرغم من عدم معرفة أصول هذه القصص إلا أن الرواة دونوا ما إنتهى إليهم منها على الرغم من إنها كانت تخالف الواقع التاريخي[٥١] .

الخاتمة

بعد الدراسة المتأنية لموضوع الوهم في الروايات التاريخية توصلنا لجملة من النتائج العلمية المثبتة بالأدلة ومنها :

ـ ينتج عن الوهم في الروايات التاريخية إعتقادات مزيفة، أو منحرفة، أو بعيدة عن الحقيقة ؛ وكذلك ينتج منه أفعال وسلوكيات وأقوال تتلاءم مع عالم الوهم البعيد عن الحقيقة ، لا يشعر بها ولا يعرفها كلُّ من عاش بالوهم ، أمَّا الذي خارج الوهم فيرى الزَّيف والافتراء .

ـ الوهم في الروايات التاريخية ليست كلمة عابرة بل أنَّها تمثل تاريخ شعوب ومجتمعات غرقت وغاصت في عالم بعيد عن عالم الحقيقة ، فعالم الحقيقة المبني على أسس علمية، وعقلية وحقيقية، لا يمكن أن ينتج منه كل تلك الدّموية التي شهدها تاريخ الشعوب العالمي .

ـ أخطر أنواع الوهم في الروايات التاريخية هو الذي تتوارثه الأجيال حتى يكون كالقانون أو التّشريع الذي لا يمكن مخالفته أو تركه أو حتى السُّؤال عن أصلهِ ومقصدهِ ؛ لأنَّ ذلك من المحرمات التي لا يمكن التَّهاون بها وقد سارت كثيرٌ من المجتمعات على كثيرٍ من العادات أو التّقاليد على أنَّها دين متبع ، ومن ثم تتطور إلى مرحلة القداسة.

ـ إن الوهم في الروايات التاريخية له خاصية تصوير ما لا حقيقة له ، فبإمكانه أن يجعل الخطأ صواباً ، وبإمكانه أن يجعل الكذب حقيقة ، وبإمكانه أن يجعل الخيال واقعاً ، وبإمكانه أن يجعل الباطل حقاً ؛ لذلك تكون خطورته في الحال وفي المآل أي في الحاضر وفي المستقبل ، أي العيش في خطأ، وما ينتج من هذا الخطأ .

ـ الوهم في الروايات التاريخية له أثر كبير على التاريخ ، إذ يُفقد التاريخ خاصيته ووظيفته وهي العبرة والعظة التي هي اساس تقدم الشعوب بتجب الاخطاء وألاخذ بكل ما هو صحيح ونافع ومفيد فإذا كانت العبرة وهمية فالنتيجه بالتأكيد وهمية وتؤدي الى المهالك والمزلات والمغالط والانهيارات وفقدان البلدان وخراب الشعوب .

ـ الوهم في الروايات التاريخية يكون مؤداه الى كتابة تاريخ غير التاريخ الحقيقي ، ويرسم التاريخ على وهم الواهم ، فيغير الحقائق ويبعدها عن مسارها الحقيقي ، فالوهم إذا ساد سلطانه ؛ فإنه يتولى رسم الماضي وتحديد ملامحه ومضمونه ، وكذلك رسم الحاضر وتحديد إطاره ثم التأثير على المستقبل ، لأن الماضي والحاضر هما أساس أي مستقبل .

ـ الوهم في الروايات التاريخية دائما ما يأتي بالخرافات والأساطير التي مضمونها تصورات لا أساس لها من الصّحة ، والوهم يعتمد على الغيبيات الوهمية التي يميل إليها الغالب من النَّاس ، بل قد يُعدّونها من المقدسات التي لا يجوز المساس بها ، والوهم يمنع صاحبه من رؤية سواه فهو بمنزلة الحقيقة التي لا جدال فيها ولا نقاش بها ولا يرى غيرها ، ولا يتراجع عن وهمه حتى لو اتضح له أنَّه كان واهما خوفا من مجتمعه المتوهم، وخوفا من نبذه ؛ لذلك يصرُّ على هذا الوهم ، أو أنَّه لا يستطع ترك ما كان عليه الآباء والأجداد .

الهوامش والمصادر والمراجع :

(١) ينظر ابن منظور ، محمد بن مكرم بن علي (ت٧١١هـ) ، لسان العرب ، (بيروت ، دار صادر ، ١٤١٤هـ)، ج١٢، ص ٦٤٤ ؛ الكفوي ، أبو البقاء أيوب بن موسى الحسيني القريمي (ت ١٠٩٤هـ) ،الكليات في معجم المصطلحات والفروق اللغويه ، تحقيق: عدنان درويش؛ محمد المصري (بيروت ، مؤسسة الرسالة، د ت) ، ص ٩٤٣.

(٢) ابن خلدون ، عبد الرحمن بن محمد (ت ٨,٨هـ) المقدمة ، تحقيق : حامد أحمد الطاهر ، (القاهرة ، دار الفجر للتراث ، ٢٠٠٤م) ، ص ٢٦ .

(٣) المصدر نفسه ، ص١٣ .

(٤) لمزيد من التفاصيل ينظر علي ، يحيى محمد ، التاريخ الموازي ، (بغداد دار ومكتبة كلكامش ، ٢٠٢٣م) ، ص١١ .

(٥) لمزيد من التفاصيل ينظر علي ، يحيى محمد ، الوهم مفهومه اركانه انواعه (حياة الموت) ، (بغداد دار ومكتبة عدنان ، ٢٠٢٤م) ، ص ١٧ وما بعدها .

(٦) ابن خلدون ، المقدمة ، ص ١٢.

(٧) المصدر نفسه ، ص١٢.

(٨) الطبري ، محمد بن جرير (ت٣١٠هـ) ، تاريخ الرسل والملوك ، تحقيق : محمد أبو الفضل إبراهيم ، (القاهرة ، دار المعارف ، ١٩٦٧م) ، ج١ ، ص٨ .

(٩) ياقوت ، أبو عبدالله شهاب الدين بن عبدالله الحموي (ت ٦٢٦هـ) معجم البلدان ، (بيروت ، دار صادر ، ١٩٩٥م) ، ج١ ، ص١٢

(١٠) ابن خلدون ، المقدمة ، ص١٢.

(١١) المصدر نفسه ، ص١٢.

([١٢]) المصدر نفسه ، ص١٣.

([١٣]) المصدر نفسه ، ص١٣.

([١٤]) ابن حزم الاندلسي ، ابو محمد علي بن احمد بن سعيد (ت ٤٥٦هـ) ، الاخلاق والسير في مداواة النفوس ، (بيروت ، دار الافاق ، ١٩٧٩م) ، ص ٢٣

([١٥]) ابن خلدون ، المقدمة ، ص١٣.

([١٦]) المسعودي ، ابو الحسن علي بن الحسين (ت ٣٤٦هـ) ، مروج الذهب ومعادن الجوهر ، تحقيق : عفيف نايف حاطوم ، (بيروت ، دار صادر ، ٢٠٠٥م) ، ج١ ، ص ٣ .

([١٧]) ابن خلدون ، المقدمة ، ص٢١.

([١٨]) المصدر نفسه ، ص ٢٦ .

([١٩]) الشيرازي ، محمد الحسيني ، فلسفة التاريخ ، تحقيق : الشيخ صاحب المهدي ، (بيروت ، دار القارئ ومؤسسة الوعي ، ٢٠٠٥م) ، ص٩٤ .

([٢٠]) ابن خلدون ، المقدمة ، ص٥٦.

([٢١]) المصدر نفسه ، ص٥٦.

([٢٢]) السيوطي ، نظم العقبان في أعيان الاعيان ، ص ٤ .

([٢٣]) ابن خلدون ، المقدمة ، ص٥٦.

([٢٤]) المصدر نفسه ، ص٥٦.

([٢٥]) اختلط المرعى بالهمل : يقال إبل همل وهوامل وهُمال واحدها هامل ، والمرعى التي فيها رعاؤها والهمل ضدها ، هذا المثل يضرب للقوم وقعوا في تخبط ينظر النيسابوري ، أبو الفضل أحمد بن محمد (٥١٨هـ) ، مجمع الامثال ، تحقيق :محمد محي الدين عبد الحميد (بيروت ، دار المعرفة ، ب ت) ج١ ، ص٢٣٨

([٢٦]) ابن خلدون ، المقدمة ، ص٤٧ .

([٢٧]) المصدر نفسه ، ص٢١ .

([٢٨]) المصدر نفسه ، ص٥٠ .

([٢٩]) المسعودي ، مروج الذهب ، ج٢ ، ص ١٢٣ .

([٣٠])إبن منظور ، لسان العرب ، ج ٩ ، ص٦٢ .

([٣١]) عيسوي ، عبد الرحمن سيكولوجية الخرافة والتفكير العلمي ، (بيروت ، دار النهظة للطباعة والنشر ، ١٩٨٤ م) ، ص ١٦ .

([٣٢]) كولنجوود،ر.ج، فكرة التاريخ ، ترجمة محمد بكر خليل(القاهرة ،١٩٦١م)،ص٣٠ ، نقلا

عن المخزومي ، مدخل إلى فلسفة التاريخ ، ص ٢٣ .

([٣٣]) مسكويه ، تجارب الامم ، ج١ ، ص ٧٢.

([٣٤]) المصدر نفسه ، ج١ ، ص ٨٣ ــ ٨٥ .

([٣٥]) ينظر طقوش ، محمد سهيل ، تاريخ العرب قبل الاسلام ، (بيروت ، دار النفائس ، ٢٠٠٩ م) ، ص٢٠٢.

([٣٦]) ينظر طقوش ، تاريخ العرب قبل الاسلام ، ص ١٩٥ .

([٣٧]) ابن النديم ، محمد بن اسحاق (ت ٣٨٠هـ) ،الفهرست ، تحقيق : رضا تجدد (عمان ، دار المسيرة ، ب ت) ، ج٨ ، ص ٣٦٧ .

([٣٨]) مسكويه ، تجارب الامم ، ج١ ، ص٦٠.

([٣٩]) روزنتال ، تجارب الامم ، صص ١٨٦ ــ ١٨٧.

([٤٠]) لمزيد من التفاصيل ينظر لوبون ، غوستاف ، سيكولوجية الجماهير ، ترجمة هاشم صالح ، (دار الساقي ، ١٩٩١م) ، ص ٦٧ .

([٤١]) ينظر طقوش ، تاريخ العرب قبل الاسلام ، ص ٢٢١ .

([٤٢]) ينظر المرجع نفسه ، ص ٢٢٢ ــ ٢٢٤ .

([٤٣]) ينظر المرجع نفسه ، ص ٢٢٤ .

([٤٤]) ينظر المرجع نفسه ، صص ٢٢٩ ــ ٢٣٠ .

([٤٥]) ابن النديم ، الفهرست ، ج٨ ، ص٣٦٣.

([٤٦]) المصدر نفسه ، ج٨ ، ص ٣٦٣.

([٤٧]) ينظر المصدر نفسه ، ج٨ ، صص ٣٦٤ ــ ٣٦٩.

([٤٨]) ينظر إبن منظور ، لسان العرب ، ج٧ ، ص٧٣ وما بعدها .

([٤٩]) ينظر العدوي ، محمد خير ، معالم القصة في القرآن الكريم (عمان ، دار العدوي ، ١٩٩٨م) ، ص ٣٥ .

([٥٠]) لمزيد من التفاصيل ينظر عيد ، وجدي محمود محمد ، دور القصاص في نشأة علم التاريخ في صدر الاسلام ، رسالة ماجستير غير منشورة كلية الدراسات العليا ، جامعة النجاح الوطنية ، ٢٠٠٦م ، ص ٩ .

([٥١]) ينظر طقوش ، تاريخ العرب قبل الاسلام ، صص ١٤١ ــ ١٤٢ .